(الحريم الثقافي) 3/1

قبل خمس سنوات أصدرت سالمة الموشي كتابها (الحريم الثقافي بين الثابت والمتحول) الطبعة الأولى 2004م دار المفردات ، ورغم مرور هذه السنوات على صدور الكتاب إلا أنه مازال مُشرعاً لمزيد من التساؤلات ، لذا آثرنا أن نخصه بهذه القراءة لا تهدف إلى أكثر من تجاذب مسار الحديث حول قضايا مهمة أثارها (الحريم الثقافي) .

لماذا نحن يا ربي ؟!
لماذا نحن في المنفى ؟!

هكذا استعارت الكاتبة سالمة الموشي كلمات الشاعر العراقي الراحل عبد الوهاب البياتي ، قبيل خاتمة كتابها (الحريم الثقافي)، وإذا كان البياتي قد أطلق تساؤلاته تلك تحسراً على حالة العالم العربي حين استشعر ما يعانيه من تجاهل وتهميش في ظل هيمنة القوى الكبرى ، فإن الموشي وصفت بها حال الكاتبة (المرأة) والمجتمع النسوي في المشهد السعودي ، حيث قامت بتحليل وتشريح الذهنية النسوية بدءاً من مرحلة التأسيس لإبقاء هذه الذهنية في نقطة اللامكان أو الصفر ، وانتهاءً بهدهدة الذات النسوية لدى الكاتبات السعوديات من قِبل النقد الذي تعمد عدم مواجهتهن بالأسئلة الضرورية للانتقال من مرحلة البوح العاطفي إلى مرحلة الوعي الفكري في الحراك الثقافي بشكل عام .

ولعل أهمية هذا الكتاب لا تكمن في تشريحه وتحليله الوضع الثقافي النسوي في المشهد السعودي وحسب ، ولكن في إمكانية سحب هذا التشريح والتحليل إلى العقلية العربية .

وبالتالي فإننا سنتناول هذا الكتاب في ثلاث حلقات ، نعرض فيها لما طرحته الموشى من فكر نتفق معه في أحيان ونتداخل معه في أحيان أخرى ، علنا نقترب قدر المستطاع من بيان الأنساق الجمعية التي أسهمت في إنتاج ذهنية الحريم في المشهد السعودي والعالم العربي ، مع تأكيدنا المسبق على العلوم الإنسانية تحدق بها النسبية ، كما أن اتساع المساحة الجغرافية للعالم العربي ، وتباينها من حيث سياقاتها التاريخية ، ومكوناتها الثقافية ، وسماتها الخاصة في نظرتها للمرأة وطرائق التعامل معها ، يجعل الحديث متفاوتاً ونسبياً، بيد أن هذه المساحة الجغرافية الواسعة تمتلك أيضاً من عوامل التقارب ، وأوجه المشابهة ما يؤهلها لمثل هذا التشريح والتحليل .

العقل المستزرع
نظرية المؤامرة الجمعية لتهميش المرأة

حين تحدث إميل دوركايم عن طريقة حفاظ المجتمعات على موروثاتها الثقافية أطلق مفهوم "الضمير الجمعي" ، ذاهباً إلى أن أي جماعة بشرية تتكون من الشيوخ والشباب ، ويمثل الشباب الحماس والرغبة في التغيير والخروج على مالا يتوافق مع رغباتهم في الحرية والانطلاق ، بينما يمثل كبار السن أو الشيوخ الرغبة في الحفاظ على تقاليد وعادات وموروثات القبيلة أو الجماعة ، ومن هنا يحدث الصراع بين الطرفين ، ولم يذهب دوركايم إلى ما ذهب إليه هيجل في نظريته الجدلية حيث يتوصل الطرفان إلى ما أسماه "جماع النقيضين ، أو نفي النفي " ، إذ الشباب - بحسب دوركايم - بعد فترة من الصدام والقمع تتسرب إليهم موروثات الجماعة التي لا يستطيعون الخروج عليها ، ومن ثم لا يلبثون هم أنفسهم بعد مراحل لاحقة من أعمارهم حتى يتشكلون على هيئة ضمير جمعي يمارس سلطوية على الشباب الجدد الراغبين في الخروج على تقاليد الجماعة ، حيث يراقبونهم في أفعالهم وأحاديثهم ساعين بكل جهد إلى محاولة تأهيلهم ليكونوا فيما بعد ضميراً يراقب ويرصد ويحاسب ويتبنى بكل صرامة تقاليد الجماعة وثقافتها.

وليس دوركايم وحده هو الذي تحدث في نظرية توريث الثقافة عبر الأجيال عن طريق التقويم والتهذيب ، فقد تبناها جمع من علماء الاجتماع وهم في سبيلهم للنظر في الكيفية التي تنتقل بها الثقافة عبر الأجيال ، وهي نفسها الفكرة التي استفادت منها الموشي لتبني عليها فكرتها التي عنونتها بـ" العقل المستزرع " ، حيث تذهب إلى أن المؤسستين التعليمية والاجتماعية هما اللتان تزرعان في المرأة عقلها الثقافي ، هذا العقل الذي يحدد لها مساراتها وخياراتها بناء على نوعية الاستثمار الذي تلقاه هذا العقل في الصغر ، فالتعليم الذي يرسخ في المرأة على أن دورها الاجتماعي الوحيد هو خدمة الزوج والأسرة والالتزام بتبعاتها هو صانع هذا العقل ، فهناك جملة من الأوامر والنواهي تؤكدها باستمرار هاتان المؤسستان لتتمكنا من استزراع هذا العقل ، ولعلنا نلحظ هنا الصيغة الصناعية في كلمة استزراع التي تفيد بأن هذا العقل ليس فطرياً ولكن من صنع المؤسستين ، اللتان وصمتهما الموشى بأنهما نسق ، مؤكدة بأن النسق يعني : الاختيار المسبق بما يتوافق معه ورفض ما هو خارج عنه ، ولعلنا لا نستطيع أن نختلف مع الموشي في هذه البدهية التي تحكم فكر الجماعات البشرية ، والتي عن طريقها خلقت تلك الجماعات القوانين للمحافظة على بقائها بما يتوافق مع فكرتها عن الحياة ، وربما كانت هذه البدهيات هي أساس ما يطلق عليه السرديات الكبرى في الكون ، وفي مقدمتها الأديان ، تلك السرديات التي قالت التفكيكية مؤخراً بسقوطها وارتقاء البشرية عن الاحتكام إليها ؛ نظراً لأن كل هذه اليقينيات الكبرى لم تعد محل جدل بعد ما

وصلت إليه البشرية من انتصارات واكتشافات أوضحت زيف الكثير مما كان يظنه الإنسان الحقيقة المطلقة .

لكننا نختلف مع الموشي في حصر عمل هاتين المؤسستين على العقلية النسوية واستزراع عقلها الثقافي ، فهي مثلما تعمل على المرأة تعمل على الرجل ، وبالتالي فإذا كانت الموشى تذهب إلى أن النتيجة النهائية لعمل التعليم والمؤسسة الاجتماعية هي بقاء الذهنية النسوية في منطقة اللامكان أو الهامش ، فإنها أيضاً تؤدي العمل ذاته في الذهنية الذكورية ، مما يعني أن العقلية الكلية للجماعة تظل بثباتها وعدم ديناميكيتها خارج المتن ؛ لأنها ستخرج من الصراع التاريخي فيما بين الجماعات .وهذا ما لم تذهب إليه الموشى في تحليلها واستقرائها للواقع الاجتماعي الثقافي الذي تعاملت معه ؛ لأنها اجتزأت رؤيتها على الجماعة النسوية دون مد أفق التفكير والتحليل إلى نهاية الخط ، ولو عكسنا الرؤية أو السؤال من الخلف إلى الأمام لرأينا أن هامشية الجماعة الكلية وثباتها تتشكل بثبات أوضاع عناصرها ، وبالتالي ثباتهم على ما هم عليه ، لكن الواقع يقول إن المجتمع العالمي لم يكن هو نفسه منذ ثلاثين عاماً ، ولم تكن الساحة المحلية التي شهدت أولى الكتابات الإبداعية النسوية في سبعينات القرن الماضي هي نفسها الآن حيث عشرات الكاتبات والمثقفات والأكاديميات ومئات المقالات ، وتنامي الإنتاج الإبداعي النسوي بشكل لافت للنظر ، والدراسات الجادة والعديد من الأسماء التي تتردد في الصحف والمجلات وفي الأندية الأدبية ، ومن ثم ففكرة الثبات غير موجودة ولا يمكن القول بها ، على أن فكرة آينشتاين عن عدم الشعور بالحركة إذا انطلق قطاران في وقت واحد من محطة واحدة وبنفس السرعة وعلى قضيبين متوازيين هي الحاكم في تلك الديناميكية غير المرئية بوضوح ، وهذا ما يفسر التغير غير المرئي في الذهنية على مستوى المشهد المحلي سواءً من المرأة أو الرجل ، حيث تبدو ذات الهيمنة الذكورية على العقلية النسوية ، بينما المرأة ما زالت في حيز الهامشية بالنسبة لمتن الرجل الاجتماعي ، بينما واقع الحال يأخذ جانب المغايرة التامة للمراقب الدقيق المتأمل بعمق، ولكي نتحقق من الأمر بشكل أكثر مرونة علينا القياس على ثابت وليس متغيراً مماثلاً ، وليس هذا دعوة للرضى بما أُنجز ولا رغبة في النظر إلى الخلف بشكل دائم ولكن نطمئن إلى أننا قطعنا ما يستحق أن نتفاءل من أجله .

ونؤكد في هذا السياق على أن ما يطلق عليه المتن : (الخطاب الذكوري) ، والهامش :(الخطاب الأنثوي) لم تعد بينهما تلك المسافة الشاسعة التي ما زلنا نتصورها ونردد صداها بلا فائدة ، ولن يتأتَ فك هذا الاشتباك بحسب قول عبد الله إبراهيم ما لم : " تُفرغ شحنة الغلواء الأيديولوجي التي تحاول بعض اتجاهات النقد النسوي تثبيتها وتأكيدها " .

ولأن الموشى أسست فكرتها انطلاقاً من هذه المؤامرة الجمعية على تدجين المرأة واستزراع عقلٍ لها غير كامل أو نصف قاصر يمارس إنتاجه في حيز الهامش الثقافي

فقد قرأتْ ما أنجز في الثلاثين عاماً الأخيرة على أنه هامشي ، ونفعه قليل وليس أكثر من ديكور على مائدة الرجل ، وقد ذهبت إلى أن المرأة لا تكتب إلا من محتبسها الأنثوي مرددة خواطرها عن قهرها الاجتماعي والتاريخي في سرد بكائي طويل ، أو ما يمكن وصفه بالنشيج العاطفي ، غير قادرة على إنتاج خطاب تفكيكي قادر "على التناول الواعي لما هو جوهري أو التحكم في سياق الوعي دون تركه على عواهنه" .

ويمكننا القول إن الموشي اجتهدت اجتهاد الخليل بن أحمد الفراهيدي في جمع شتات موسيقى الشعر حين جمعها على هيئة منظومات ثابتة ومعروفة باسم أبحر العروض ، لكن اجتهادها لم يكن في الموسيقى الشعرية ، وإنما في خصائص الكتابة النسوية في المشهد المحلي ، غير أنها لم تكن معنية بهذا الأمر بقدر عنايتها بإظهار أثر الثقافة القاهرة والمدجنة والمهمشة للمرأة من خلال الخطاب النسوي نفسه ، فلم تتوقف كثيراً أمام هذه الخصائص التي تتجلى في الثرثرة الأقرب إلى الحس الشفاهي ، وحضور الذات بشكل واضح ،وطغيان اليومي في مقابل الكوني ، وغيرها من الخصائص التي يمكننا تلمسها من بين سطور الكتابة النسوية ، وفي الكثير من النقد الموجه إليها ، فالموشي تذهب إلى أن المرأة تقلد الرجل وكأنها في أفضل حالاتها ليست سوى رجل حسبما قالت إلهام منصور في ملحق روايتها : (حين كنت رجلاً)، وأن كتاباتهن لا تزيد عن نهنهة عاطفية ، وليس حضورها في هذه الكتابة سوى ظل للرجل ، بينما يبقى الأخير هو الأقوى والفاعل الحاضر ، وأنها تقدم كتابة منمطة على مقياس المجتمع وهواه ، وإذا تصادف أن قدمت كاتبة رؤية مغايرة في نصها ما تلبث أن تتراجع عنها وتلتزم بسياق النسق الاجتماعي الذي يمارس قهراً لعقلها الثقافي منذ الطفولة، وغيرها من الاتهامات التي لا تخلو من رغبة في الخروج والتقدم بخطى أسرع وأقوى نحو الأمام الثقافي ، ولا يمكننا الاختلاف مع الكثير مما قالت به الموشي ، لكننا نُحيِّي شجاعتها النقدية ، كما نُحيِّي رغبتها في التقدم نحو الأمام لتضيق الفجوة بين الهامشي العربي والمركزي الأوربي ، لكن هذا التقليص للفجوة لن يتحقق بتحريك جزء مع ثبات جزء آخر، فذلك ينبئ عن خلل ثقافي واجتماعي ، فالتغير الاجتماعي والثقافي من أبطأ المتغيرات في حياة الشعوب ، وحسبما يذهب بعض علماء الاجتماع فلا بد من تغيير في علاقات الإنتاج حتى يعقبه تغيير في ثقافة المجتمع ، ولعل هذه اللحظة هي التي تعيشها الكاتبات السعوديات ، الواقفات على سلم يفصل ما بين الهامش والمتن، ما بين الشفوي والكتابي ، ما بين الرغبة في اعتلاء صهوة هذا المتن والحنين المتجذر إلى زوايا الهامش ، فالموشى لم تأخذ في اعتبارها أن الانتقال من الشفوية إلى الكتابية فعل يحتاج إلى خبرة ثقافية ، مخاض عسير ليصل إلى الضفة الأخرى ، تبدأ كأي نشاط ثقافي بالسعي للتشبه حتى اكتمال الشبه ، ثم البحث عن خصوصية وتفرد ، فلا يمكن أن يولد شخص متفرد بذاته إلا إذا كان خارج إطار المجتمعية ، فالإنسان كما يعرفه علماء الاجتماع : اجتماعي بالفطرة ، ومن ثم فلا غرابة من وجود تماثل ومطابقة في تقنية

الكتابة بين المرأة والرجل ؛ لأنه تاريخيًّا أسبق في الممارسة الإبداعية منها ، وهو نفسه لم يكن أمامه سوى الكتابة وفق نماذج الآخر حين أراد الدخول في الفنون الإبداعية التي لم تتوافر في تراثه الثقافي ، وفي مقدمتها فن الرواية ، فالمحاكاة هي أولى المراحل ، حتى يصل إلى الإتقان فيتنقل إلى الخصوصية ، ولعل ثلاثين عاماً من الخبرة اللغوية الكتابية لا تكفي للوصول إلى خصوصية تقنية مميزة للمرأة السعودية عن الرجل ، وإن كان هذا ليس منعدماً إلى هذا الحد ، وإذا دققنا القراءة سوف نجد بعض النماذج التي تؤكد ذلك وإن اتهمتها الموشي بأنها فردية وعفوية وغير مؤثرة في السياق العام .

بقي أن نقول أن ما تعاني منه المرأة السعودية من عدم الاكتمال والتحقق والهامشية هو نفسه ما تعاني منه المرأة العربية ولكن بدرجات متباينة ، ومن ثم فكتاباتهن في هذه المجتمعات لم تصل بشكل واضح إلى تقنيات مميزة تؤكد الخصوصيات الدقيقة والمتفردة لكتابة الأنثى ، ومازالت أغلب هذه الكتابات تدور في فلك الذكورة وطغيان الرجل والنحيب أو النهنهة العاطفية الاجتماعية ، ومحاولات استثثار عطف المجتمع عليهن والتعامل معهن على أنهن كائنات أقل قوة في الصراع الاجتماعي ، يكفي أيضاً أن إحصائية بديهية سريعة ستقول لنا : إن عدد الكتاب الذكور الذين عرفتهم الثقافة العربية المعاصرة أكبر بكثير من الأسماء النسوية التي ظهرت ، على الرغم من بعض تقدم هذه البلدان في المسيرة التعليمية والأفكار الاجتماعية ، لكن الحركة الكلية لهذه العملية الإبداعية في العالم العربي تشير إلى أن الفوارق متباينة ، وخصوصية التقنية النسائية ما زالت أقل ، وأن الفارق البدهي بين مجتمعات قائمة على اقتصاد ليس صناعيًّا بشكل مؤثر لا بد أنه سينتج ثقافة مختلفة عن مجتمعات أكثر عمقاً في الاقتصاد الصناعي .